مجلة وادى النيل للدراسات والبحوث ـ العدد الرابع ـ أكتوبر 2014م

ثورة عبد اللّه بن الزبير ضد الخلافة الأموية

61 – 73 هـ

د. عبد الفتاح رجب حمد بولبيض(*)

مقدمة:

قامت هذه الثورة في عصر الخليفة الأموي الثاني يزيد بن معاوية بن أبي سفيان وقادها عبد الله بن الزبير الذي استطاع أن يحصر خلافة بني أمية في مرحلة قوة ثورته في دمشق وما حولها. بينما مد سلطته من حدود الصين شرقا إلي برقة غربا. وبايع لنفسه كخليفة للمسلمين. فعادت الخلافة ثانية إلي الحجاز بعد أن نقلها علي بن أبي طالب إلي الكوفة ومعاوية بن أبي سفيان إلي دمشق وأصبح عبد الله بن الزبير من اخطر الشخصيات الثائرة علي خلافة الأمويين وامتدت ثورته من خلافة يزيد بن معاوية حتى خلافة عبد الملك بن مروان الذي نجح بعد جهود مضنية في القضاء علي هذه الثورة. ونادي عبد الله بن الزبير بضرورة العودة إلي إلى عصر إلا سلام الأول بأن تكون الخلافة بالشورى والانتخاب.

اختار عبد الله بن الزبير مكة بأن تكون مقر خلافته وجعل من الكعبة المشرفة مركزه الذي سيحكم منه الدولة العربية الإسلامية وأطلق علي نفسه (المستجير بالرب) (والعائذ بالبيت)

يبدو انه كان لشخصية عبد الله بن الزبير وظروف نشأته وتربيته أثرا واضحا علي قوة ثورته التي قام بها مما دعاه بالتالي للمطالبة بالخلافة.

فقائد هذه الثورة هو عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد فجدته لأبيه هي السيدة صفية بنت عبد المطلب (عمة النبي صلي الله عليه وسلم) احدي عماته اللائي اسلمن وقد هاجرت إلي المدينة كما كانت السيدة خديجة بنت خويلد أم المؤمنين أول زوجات النبي عمة والده الزبير و أما السيدة عائشة بنت أبي بكر الصديق (أم المؤمنين) فهي خالته أخت أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق.

ولد عبد الله بن الزبير في المدينة المنورة في شهر شعبان بعد عشرين يوما من هجرة النبي صلي الله عليه وسلم إليها فكان بذلك أول مولود من المسلمين في المدينة كما كان اكبر أبناء الزبير بن العوام وقد ابتهج النبي بمولده وكثير من الصحابة لان اليهود قد زعموا بأنهم قد سحروا المسلمين فلا يولد لهم ولد وقد بايع عبد الله بن الزبير وهو ابن ثمان سنين. وقد تربي عبد الله بن الزبير في بيت خالته

أم المؤمنين عائشة وبه كانت تكني وقد ظهرت خطابته منذ كان صبيا وقد تنبأ له الخليفة عمر بن الخطاب بذلك.

شارك عبد بن الزبير مع والده منذ كان يافعا في معركة اليرموك ثم فتح مصر واشترك في تدوين القران الكريم كما سطع نجمه في فتوحات المسلمين في خلافة عثمان لطرابلس وافريقية لما بذله من شجاعة في قتل القائد البيزنطي حرجيوس (جرجير)[1].

ولما حوصر الخليفة عثمان بن عفان في داره بالمدينة كان عبد الله بن الزبير من المدافعين عنه حتى أثخن بالجراح وقد وثق الخليفة عثمان فيه وعهد إليه بوصيته[2].

لما نشب الصراع السياسي بين الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وبين الخليفة علي بن أبي طالب انضمت ام المؤمنين عائشة بنت لبي بكر إلي طلحة والزبير ضد عليا. وقام عبد الله بن الزبير بدور كبير في موقعة الجمل وكانت خالته أم المؤمنين قد كلفته بالصلاة بالمسلمين فصلي خلفه شيوخ قريش[3].

جمع عبد الله بن الزبير عدة صفات حميدة أهلته للخلافة ولقيادة الثورة ضد بني أمية وابرز تلك الصفات التقوى والورع فقد اجمع المؤرخون علي كونه تقيا متمسكا بتعاليم الدين الحنيف كما انه كان صواما قواما يقضي وقته إلي جوار الكعبة وقد وصفه عدوه عبد الملك بن مروان بأنه (طويل الصلاة كثير الصيام)[4].

عرف عبد الله بن الزبير بالشجاعة والإقدام إذ بدا القتال وميادينه منذ نعومة أظفاره اشترك في الفتوحات الإسلامية وهو في الرابعة عشر من عمره وذلك في فتوحات الشام ثم ارتحل مع والده إلي مصر وشمال افريقية وذلك في عهد عثمان بن عفان كما انه شارك في حصار المسلمين للقسطنطينية في خلافة معاوية بن أبي سفيان[5].

استمر عبد الله بن الزبير في مجابهة جيوش الأمويين فقاتل جيوش يزيد بن معاوية ومروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان وقد حاصرته الجيوش الأموية مرتين في مكة ففي عهد يزيد بن معاوية حاصره الحصين بن نمير وحاصره الحجاج بن يوسف الثقفي في عهد عبد الملك بن مروان وآبي أن يستسلم حتى لقي حتفه[6]. كان عبد الله بن الزبير لسنا خطيبا مفوها يصل الي قلوب سامعيه ويكسب تأييدهم ويخاطب عقولهم وعواطفهم كما كان شاعرا و راوية لشعر الأقدمين كثيرا ما صاغ رسائله وكتبه شعرا رصينا

اشتهر عبد الله بن الزبير بالصراحة لا يحب المدارة أو المكر والخداع وقد كانت تلك الصفات ولازالت من مقتضيات الحكم والسياسة حتى أن بعض من

معاصريه عابوا عليه ذلك كما انتقده بعض المؤرخين أيضا وتميز ابن الزبير بالزهد فمال نحو التقشف والبساطة حتى رماه بعضهم بالبخل والشح[7].

بدايات وبوادر ثورة عبد الله بن الزبير

برزت بوادر ثورة عبد الله بن الزبير بعد أن تولي الخلافة الأموية يزيد بن معاوية بعد وفاة معاوية بن أبي سفيان وذلك عندما أعلن عبد الله بن الزبير علي انه اختيار يزيد بن معاوية خروج عن القواعد الإسلامية في اختيار الخليفة والتي تنص علي ضرورة الأخذ بمبدأ الشورى في اختيار أمير المؤمنين وقد ابدي ابن الزبير معارضة في قوة وصراحة حينما اخذ معاوية البيعة لابنه يزيد لولاية العهد وتخوف معاوية بن أبي سفيان من خطورة عبد الله بن الزبير علي ابنه وقد أشار معاوية إلي ذلك في وصية لابنه بقوله :-

((وأما الذي يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب فإن أمكنه فرصة وثب فذاك ابن الزبير فان هو فعلها بك فظفرت به فقطعه أربا أربا))[8].

تولي الخلافة يزيد بن معاوية بعد وفاة والده وبايعته جميع الأمصار الإسلامية سوي الحجاز حيث كان لجيش أبناء الصحابة وقد حملوا راية المعارضة وفي مقدمتهم الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وأمام ذلك الوضع أرسل يزيد بن معاوية إلي واليه في المدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان بان يأخذ البيعة منهما له ولكنهما رفضا البيعة ليزيد وخرجا إلي مكة.

وجد ابن الزبير في مدينة مكة أمنا وطمأنينة واستطاع أن يكسب عطف وتأييد المسلمين حينما قال لهم ((أنا عائذ بالبيت)) ويري الباحث أن ابن الزبير استقر في مكة حتى ينشر أفكاره وآراؤه بين الحجاج القادمين لزيارة مكة من مختلف الأمصار الإسلامية ومما زاد في قوة ابن الزبير ومكانته في مكة عندما خلا له الجو بخروج الحسن بن علي منها بعد أن لبي دعوة أهل الكوفة للالتحاق بهم للثورة ضد خلافة يزيد بن معاوية ويري بعض المؤرخين بأن ابن الزبير قد شجع الحسين علي الخروج إلي العراق وابن الأثير يذكر بان الحسين استشار ابن الزبير في الخروج فقال له:- ((أما لو كان لي بها مثل شيعتك ما عدلت عنها))[9].

إلا أن الباحث يري بان الحسين كان عازما علي الخروج لان ثورته قد تكاملت بوصول رسائل أهل الكوفة بدعوته للقدوم إليهم ثم كانت فاجعة كربلاء ومصرع الحسين فخلا الجو لابن الزبير وأعلن الثورة علي الأمويين وقد تضافرت عدد من العوامل التي دعته لإعلان ثورته منها : زهد الصحابة في تولي منصب الخلافة مثل عبد الله بن عمرو وعبد الله بن العباس وابن علي بن أبي

طالب محمد بن أبي الحنفية فقد ركنوا إلي الهدوء مما أتاح الفرصة لابن الزبير كما أن ولاة الحجاز قد تعددوا وعانت حامياتهم العسكرية من الضعف وانعدام النظام مما اضعف هيبة الولاة الأمويين كما أن من الخليفتين معاوية وابنه يزيد لم يهتما باختيار شخصيات عربية لتولي أمور الولايتين في مكة و المدينة مثل المغيرة بن شعبه والي الكوفة وزياد بن أبيه والي البصرة واكتفي الخليفتين بتولية بعض أبناء عمومتهما من الأمويين ومما زاد الطين بله سرعة تغيير الخليفتان لهؤلاء الولاة في الحجاز مما اوجد نوعا من الاضطراب والفوضى هناك كما أن سياسة الأمويين الاقتصادية في الحجاز كانت سيئة لاسيما وان هذا الإقليم كان من أفقر أقاليم الدولة الإسلامية بسبب بنيته الفقيرة التي أثرت علي بؤس أهله ولم يبذل معاوية للحجازيين أي زيادة في العطاء مما أدي إلي سخطهم وتذمرهم والذي زاده تحول الخلافة عن طريق الشورى والانتخاب إلي التعيين والوراثة مما أدي إلي زيادة سخط الرعية وعاد المسلمون بذاكرتهم إلي عصر الخلفاء الراشدين عصر البساطة والديمقراطية وقارنوه بعصر بني أمية الذي أصبح اقرب إلي النظام الفارسي والبيزنطي من النظام العربي الذي ألفه العرب كما ان معاوية بن أبي سفيان استعان ببعض الولاة الأشداء مثل المغيرة وزياد كما انه ولي أقاربه في المناصب الهامة فكره المسلمون الحكم الأموي وساعدوا كل الخارجين علي الأمويين وفي مقدمتهم ابن الزبير[10]. إن عبث الخليفة يزيد بن معاوية جعلته غير كفء لتولي منصب الخلافة في الوقت الذي كان فيه ابن الزبير تقيا صالحا ووصفه ابن الأثير بقوله: ((فليلة قائم حتى الصباح وليلة راكع وليلة ساجد حتى الصباح))[11].

اما يزيد فكان كما وصفه ابن الأثير ((يزيد الخمور ويزيد الصقور ويزيد الفهود ويزيد القرود ويزيد الكلاب ويزيد النشوات ويزيد الفلوات))[12] .

وقد اجمع المؤرخون قدامي ومحدثين علي عدم أهلية يزيد للخلافة وان معاوية لم يبايعه بولاية العهد إلا مدفوعا بعاطفة الأبوة.

ومما ساعد ابن الزبير علي إعلان ثورته مقتل الحسين وذلك لمكانة الحسين في قلوب المسلمين حتى إذا قتل الحسين أعلن ابن الزبير ثورته فقام خطيبا وهاجم يزيد وأخلاقه ثم بكي الحسين ومدحه وأطنب في الثناء عليه وسب أهل الكوفة لأنهم تخلو عن نصرته[13].

لما فرغ عبد الله بن الزبير من خطبته حتى طالبه أنصاره بان يبايع لنفسه بالخلافة غير انه رأي ألا يجيبهم إلى ذلك وأراد أن يظهر لهم زهده في الخلافة ويقول الطبري عن ذلك ((فثار إليه أصحابه فقالوا له: أيها الرجل اظهر بيعتك فإنه

لم يبق احد إذ هلك الحسين ينازعك هذا الأمر وقد كان يبايع سرا وتظهر انه عائذ بالبيت فقال لهم لا تعجلوا[14].

جهر عبد الله بن الزبير بثورته و إعلانها سنة 64هـ

أدرك الخليفة يزيد بن معاوية خطورة ما يدبر له ابن الزبير ورأي أن يقف موقف حاسما أمام ما يدبر له ابن الزبير فأرسل إلي وجهاء المدينة للقدوم إليه في دمشق ووزع عليهم الأموال حتى لا ينضموا إلي ابن الزبير غير أنهم ما لبثوا أن خيبوا آماله عندما عادوا إلي الحجاز واخذوا يكيلون ليزيد السباب والشتائم فأرسل إليهم يزيد يهددهم ويتوعدهم غير أن أهل المدينة خلعوا بيعة يزيد وطردوا أقربائه من بني أمية [15].

رأي يزيد بن معاوية بان يرسل إلي المدينة جيشا لتأديب أهلها ويبدو أن نية يزيد تلك لم تلبث أن وصلت إلي مسامع أهل المدينة فعملوا علي حفر خندق حولها (أسوة بما فعله الرسول في غزوة الأحزاب) غير أن أهل المدينة هزموا في موقعة الجرة وأباح القائد الأموي ثلاثة أيام لجنده عاثوا فيها الفساد والخراب قتلوا ثمانين صحابيا من أصحاب رسول الله صلي الله عليه وسلم وسبعمائة من الأنصار وقريش وعشرة ألاف من الموالي وسائر الناس[16].

لما فرغ الجيش الأموي من المدينة قرر قائد الجيش أن يتوجه إلي مكة للقضاء علي ثورة عبد الله بن الزبير تحصن عبد الله بن الزبير بالكعبة وتتابعه النجدات علي فألتحق المقاتلون من أهل المدينة الذين انسحبوا منها بعد أن اجتاحها الجيش الأموي ووصل إلي ابن الزبير نجدة بن عامر الذي ثار علي الأمويين في اليمامة كما انجد ابن الزبير عدد من الخوارج الذين قدموا من العراق وقد قبل مساعدتهم رغم مخالفتهم له في مبادئه كما انضم إليه المختار بن أبي عبيد الثقفي مع عـــدد من أتباعه[17].

حاصر القائد الأموي الحصين بن نمير ابن الزبير وأتباعه حتى اليوم الرابع من شهر ربيع الأول عام 64 هـ حيث توفي الخليفة الأموي يزيد بن معاوية فقابل القائد الحصين بن نمير عبد الله بن الزبير وعرض عليه الحصين أن يخرج معه إلي الشام حيث يبايعون له فقال أنت أحق بهذا الأمر هلم نبايعك ثم اخرج معنا إلي الشام فان الجند الذين معي من وجوه الشام وفرسانهم فو الله لا يختلف عليك اثنان وتؤمن الناس وتهدر هذه الدماء التي كانت بننا وبينك وبين اهل الحرم رفض عبد الله بن الزبير ما عرضه عليه الحصين وقال : أنا لا أهدر الدماء والله لا ارضي أن اقتل بكل رجل منهم عشرة منكم [18].

استعد القائد الحصين بن غير للرجوع إلي دمشق ورأي ابن الزبير أن تتم له البيعة في مكة وأرسل إلي القائد الحصين بكتاب جاء فيه (أما أن أسير إلي الشام فلست فاعلاً واكره الخروج من مكة ولكن بايعوا لي هنالك فأني مؤمنكم وعادل فيكم)) ورفض القائد الحصين وكتب إلي ابن الزبير ((أرأيت إن لم تقدم بنفسك ووجدت هنالك أناسا كثيراً من أهل البيت يطلبونها يجيبهم الناس ما أنا صانع)).[19]

انتقد بعض من المؤرخين رفض ان الزبير لما عرضه عليه الحصين بن نمير، فابن الأثير يقول ((لو خرج معهم ابن الزبير لم يتخلف عليه احد))[20]. ويقول أبو الفـــــداء ((ولو سار ابن الزبير مع الحصين إلى الشام أو صانع بني أمية ومروان لاستقـــر أمره))[21].

ربما يرجع رفض ابن الزبير لعرض القائد الحصين لعلمه بأن أهل الشام لا يدينون بالولاء لغير بني أمية، وانه ليس لديه عصبية في الشام، وأنه أراد أن لا يبتعد عن قاعدته حيث أنصاره من الحجاز والذين رأى أهلها أملا في عودة حاضرة الدولة إليهم كما كان الحال في عهد النبي والخلفاء الراشدين، كما ان ابن الزبير كان يعلم بالضرورة أن مروان بن الحكم شيخ بني أمية كان يتطلع إلى الخلافة[22].

بموت يزيد بن معاوية في ربيع الأول 64 هـ أصبحت الظروف مواتية لأن يعلن ابن الزبير رغبته في الخلافة، فلقد كان معاوية الثاني بن يزيد مريضاً عليلاً زاهداً في الخلافة فانقسم البيت الأموي على نفسه وانتشرت الفوضى ولذا أعلن ابن الزبير نفسه خليفة وسارع الناس إلى بيعته، ويقول البلاذرى عن ذلك:

((فلما مات معاوية– الثاني– مال أكثر الناس إلى ابن الزبير، وهو رجل كامل السن، وقد نصر أمير المؤمنين عثمان، وهو ابن حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمه بنت أبي بكر بن أبي قحافة، وله فضل في نفسه ليس لغيرة))[23].

بايع أهل مكة والمدينة عبد الله بن الزبير، كما ثار أهل البصرة على الوالي الأموي عبد الله بن زياد وبايعوا ابن الزبير وفعل الأمر نفسه أهل البصرة، كما أعلن المصريون بيعتهم لابن الزبير فأرسل إليهم ابن الزبير عبد الرحمن بن حجرم والياً على مصر، وقد امتدت الدعوة لابن الزبير حتى عمت جميع الأقاليم وانحصر نفوذ الأمويين في دمشق وما حولها[24].

تخوف الأمويون من خطورة الموقف واجتمعوا في الجابية لاختيار خليفة في هذا الوقت المتأزم ووقع اختيارهم على مروان بن الحكم الذي ظلت سلطاته محدودة في دمشق وجزء من الشام[25].

أصبح في العالم الإسلامي خليفتان، خليفة أموي في دمشق هو مروان بن الحكم، وعبد الله بن الزبير في مكة وكان مسيطراً على معظم الأمصار الإسلامية، لعبت شخصية كل من مروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير دوراً واضحاً في موقف المسلمين منها، إذ كان ماض ونسب مروان لا يشرفانه فقد كان والده الحكم طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما انه كان عديم الفقه والعلم ووصفه للمؤرخ المقريزي بقوله ((لا فقه له ولا يعرف بالزهد ولا برواية الآثار، ولا لصحبه ولا يبعد همه))[26] كما أن أهل العراق لم يتناسوا بان مروان بن الحكم كان هو المحرك الرئيسي لسياسة عثمان التي أثارت سخطهم، كما لم ينسوا أن مروان كان من المشتركين في قتال على يوم الجمل، ومما يؤيد ابن الزبير أن البيعة له كانت عامة أما البيعة لمروان بن الحكم فكانت محصورة في بني أمية فقط.

الصدام المسلح بين عبد الله بن الزبير والخلفاء الأمويين :

تشبث كل من مروان بن الحكم وابن الزبير في المطالبة بالخلافة فكان لامناص من تحكم السيف بينهما، وقد تلاقى أنصار الحصين في ثلاثة ميادين هي مصر والعراق والمدينة.

بدأ مروان بن الحكم بمصر، لان الحجاز تحوى أنصار ابن الزبير، كما أن العراق يسكنها أعداء بني أمية الفعليين من الشيعة والخوارج خرج مروان على رأس قواته إلى مصر ونجح في القضاء على أنصار ابن الزبير، وعادت مصر لبني أمية وولى عليها مروان ولده عبد العزيز سنة 65هـ[27].

وكلف مروان بن الحكم القائد عبيد الله بن زياد للخروج إلى العراق فلقي في طريقة إلى العراق جماعة التوابين من الشيعة يقودهم سليمان بن صرد وقد ندموا على خذلانهم للحسين، فالتقى معهم ابن زياد وهزمهم في عين الوردة وقتل قائدهم سليمان بن صرد، غير أن الأمور لم تسر على ما يرام حيث التقى ابن زياد مع المختار بن أبي عبيد الثقفي ومعه أنصاره من الشيعة فقتل ابن زياد [28].

أرسل مروان بن الحكم سنة 65هـ جيشاً إلى المدينة لاستعادتها من ابن الزبير، غير أن هذا الجيش اخفق في مهمته ورجعت فلوله منهزمة إلى دمشق، ثم مات مروان ونفوذه محصور في الشام ومصر، بينما سيطر ابن الزبير على الحجاز والعراق، وتولى الخلافة الأموية بعد مروان بن الحكم عبد الملك بن مروان[29].

امتد نفوذ عبد الله بن الزبير إلى العراق، وكان أهل العراق، يؤيدون كل ثائر على بني أمية، لاضطهادهم الموالى عامة، وقد كان الموالى يمثلون غالبية سكان العراق، وشغل التوابون الجيش الأموي عن مقاتلة ابن الزبير في العراق كما أن المختار الثقفي نجح في هزيمة عبد الله بن زياد وقتله وبذلك خلص عبد الله بن الزبير وأتباعه من عدو لدود، غير ان نجاح المختار في هزيمته ابن زياد جعلته منافساً لابن الزبير في هذا الإقليم[30] .

كان المختار يطمع في أن يوليه عبد الله بن الزبير على إقليم العراق، غير أن ابن الزبير خيب ظنه عندما ولى أخاه مصعباً على العراق، مما أدى إلى تذمر المختار ودخوله في صراع مع مصعب ابن الزبير، أدى إلى تصادم مسلح لم يستطع جيش المختار المستهلك أن يقف أمام مصعب وجيشه مما أدى إلى هزيمة المختـــــار ومقتله[31].

بدأت الأحداث تسير في صالح الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، فقد لقي مصعب وحده في ساحة العراق، فبدأ عبد الملك في الكيد له والتخلص منه، فأرسل إلى أتباع مصعب الأموال والعطايا، ومناهم بالمناصب وكتب الى رؤساء أهل العراق وكبار أنصار مصعب يرغبهم ويرهبهم.

زحف عبد الملك بجيشه نحو العراق والتقى مع مصعب وأتباعه في موقفه دير الحاثليق، وانتهى القتال بمقتل مصعب وتخاذل أهل العراق لمن نصرته، وبايعوا لعبد الملك [32].

وقع القائد مصعب ابن الزبير في أخطاء فادحه أدت إلى أن يتخلى أهل العراق عن نصرته، انه لم يراعى شعور الشيعة الذين يمثلون غالبية أهل العراق بإقدامه على قتل المختار الذي شفى غليل الشيعة بقتلة لابنه زياد قاتل الحسين بن على.

أثر فقدان عبد الله بن الزبير لإقليم العراق إلى نقص في الأموال والرجال لان العراق كان اكبر دعامة لثورة ابن الزبير التي بدأت في الأفول إذ استقرت معظم الأقاليم تحت سيطرة الأمويين من جديد ولم يبق تحت سيطرة ابن الزبير إلا إقليم الحجاز كما أن فقدانه لأخيه مصعباً اثر في موقف عبد الله بن الزبير لأنه مثل ساعده الأيمن في مواجهة أعدائه [33].

قرر عبد الملك بن مروان بأن يقتلع جذور هذه الثورة من منبتها في الحجاز فأرسل عدة جيوش لم تفلح في القضاء على ثورة ابن الزبير، فقرر عبد الملك أن يرسل القائد الحجاج بن يوسف الثقفي لمحاصرة عبد الله بن الزبير.

خرج الحجاج بن يوسف الثقفي من دمشق سنة 72 هـ يقود جيشاً كثيفاً للمسير نحو مكة التي وصلها في ذي القعدة حيث بدأ المسلمون يتأهبون لأداء فريضة الحج حتى إذا انتهت مناسك الحج أخذ الحجاج يقذف الكعبة بالأحجار، فبعث عبد الله بن عمر بن الخطاب ينهاه عن ذلك ثم لم يلبث الحجاج أن عاود قذفه للكعبة بالأحجار وطلب من الحجاج ضرورة مغادرة مكة أثرت الحجارة في أصحاب ابن الزبير بان قتلت منهم عدداً كثيراً , ورأى عدداً من أنصاره بأنه لا جدوى من المقاومة فخرجوا إلى الحجاج يطلبون الأمان، فتخلى أتباع ابن الزبير عنه حتى بلغ عددهم عشرة آلاف من بينهم ولدا ابن الزبير حمزة وحبيب واقترح البعض على ابن الزبير أن يكاتب عبد الملك بن مروان طالباً الآمان، وأن يطلب الآمان من الحجاج بن يوسف الثقفي إلا أن ابن الزبير رفض كل من الاقتراحين[34].

ولما أيقن ابن الزبير بقرب نهايته، دخل على أمه أسماء بنت أبي بكر وقد نيفت على التسعين فقال: يا أمة خذلني الناس حتى ولدى وأهلي، فلم يبق معى إلا اليسير ممن ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة، والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا، فما رأيك؟ أجابته والدته أسماء بشجاعة وثبات فقالت ل: ـ

((أنت والله يا بني أعلم بنفسك، إن كنت تعلم انك على حق وإليه تدعو فامض له، فقد قتل عليه أصحابك ولا تمكن من رقبتك يتلعب بها غلمان بني أمية، وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت أهلكت نفسك وأهلكت من قتل معك، وان قلت كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين، وكم خلودك في الدنيا، القتل أحسن))[35].

حفزت أسماء همة ولدها، فثبت في ميدان القتال غير أن جند الشام تكاثروا عليه وأصابته حجارة في رأسه فسقط صريعاً في 14 جمادى الأول سنة 73 هـ، وأمر الحجاج بصلب جثته ليرهب أهل الحجاز ورفعت أسماء شكواها إلى عبد الملك فنهى الحجاج وأمره بدفن الجثة[36].

ويخلص الباحث في نهاية هذا البحث إلى أن عبد الله بن الزبير من أشهر الشخصيات الإسلامية التي شهدها صدر الإسلام، وقد تجمعت في شخصيته بعض الصفات التي أهلته لتولى الخلافة، ولقي تأييداً في أغلب الأمصار الإسلامية، وقد دعا إلى الشورى وان تكون الخلافة بالانتخاب، وان تعود سياسة الدولة العربية إلى سابق عهدها في عهد النبي والخلفاء الراشدين، وهى دعوة لقيت قبولاً من كثير من العرب والمسلمين، الذين لم يكونوا راضيين عن الخلفاء الأمويين الذين ادخلوا على الخلافة كثيراً من مظاهر الترف والأبهة، حتى أنهم شبهوا هؤلاء الخلفاء بأكاسرة الفرس وقياصرة الروم.

انتهت ثورة ابن الزبير إلى الإخفاق على الرغم من انه نجح لفترة من الزمن في أن يحصر نفوذ الخليفة الأموي في دمشق وما حولها غير أنها سرعان ما بدأت في الانحسار حتى حوصر ابن الزبير في مكة، وقد تعددت عوامل إخفاق هذا الثائر إلى أن ابن الزبير أصر على البقاء في الحجاز الفقيرة في مواردها الاقتصادية، لا تمد ابن الزبير بحاجته من الأموال والغلال والعتاد والرجال، بينما استطاع خلفاء بني أمية توفير الأموال والجند نتيجة خصوبة وثراء بلاد الشام.

ومن عوامل إخفاق ثورة ابن الزبير، عدم اهتمامه بنشر الدعوة والدعاية لها، ولم يكن دعاته على جانب كبير من الحذق السياسي، ولم يلجأ ابن الزبير إلى الشعر والشعراء، وهو سلاح الدعاية في ذلك العصر، بينما أدرك خلفاء بن أمية أهمية الشعراء فغمروهم بالأموال فلهجت ألسنتهم بالمديح للأمويين والهجاء لابن الزبير.

ويعتبر موقف ابن الزبير من الخليفة عثمان بن عفان من عوامل إخفاقه، فقد ظل ابن الزبير حتى لحظاته الأخيرة يمجد هذا الخليفة ويدافع عنه، وفات ابن الزبير أن عثمان هو شيخ بن أمية الذين ينازعهم ابن الزبير وقد اتخذوا من طلب ثأر عثمان سلماً لتأسيس دولتهم، وكان تمجيد ابن الزبير لعثمان سبباً في تخلى الخوارج الازارقة عن نصرته بعد أن قدموا لمساعدته خلال حصار مكة الأول ومن أهم عوامل فشل ثورة ابن الزبير، مناهضته لكل من الخوارج والمختار الثقفي، فبدلاً من أن يركز جهوده ضد الأمويين فقد أنهك جيشه التابع لأخيه مصعب في العراق في قتال المختار، مما يسر مهمة عبد الملك بن مروان في القضاء على هذا الجيش وقتل قائده مصعب بن الزبير، ومن العوامل أيضا اعتماد ابن الزبير على العنصر العربي وإهماله للموالى الذين كانوا يمثلون غالبية سكان العراق إلى جانب ما اتصف به ابن الزبير من تقتير حتى وصف بالبخل وللمال دور هام في جميع الأزمنة في جمع الأنصار والمؤيدون[37].

الهوامش :

(1) ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله، فتوح مصر والمغرب، تحقيق على محمد عمر، الثقافة الدينية، القاهرة، 1995 م، ص 211، ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار افريقية وتونس، دار المسيرة، بيروت، ط3، 1993م، ص38، على بن الحسين المسعودى، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج3، المكتبة التوفيقية، القاهرة، د. ت. ص75، البلاذرى أحمد بن يحيى بن جابر، فتوح البلدان، دار اقرأ، بيروت، ط1، 1992 م،ص311، 326، 327، على بن محمد بن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج3، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2002، ص143، إسماعيل بن عمر ابن كثير، البداية والنهاية، ج 8 مكتبة المعارف بيروت، 1983 م، ص 333 – 335.

(2) ابن كثير، المصدر السابق، ج8، ص176.
(3) على بن محمد بن الأثير، الكامل في التاريخ، ج3، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م، ص107، ابن كثير، المصدر السابق، ج7 – ص230.
(4) ابن الأثير، أسد الغابة، ج3، ص225.
(5) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج1، دار النهضة العربية، القاهرة، 2001، ص334.
(6) ابن الأثير، أسد الغابة، ج3، ص226، 227.
(7) ابن كثير، المصدر السابق، ج 8، ص339.
(8) على بن الأثير، الكامل في التاريخ، ج3، ص369، محمد بن على بن طباطبا، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية تحقيق ممدوح حسن محمد، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ص115.
(9) ابن الأثير، المصدر السابق، ج3، ص400.
(10) احمد إبراهيم الشريف، دور الحجاز في الحياة السياسية العامة في القرنين الأول والثاني للهجرة، دار الفكر العربي، القاهرة، 1968، ص422 – 428.
(11) ابن الأثير، المصدر السابق، ج4، ص27.
(12) احمد بن يحيى بن جابر البلاذرى، انساب الأشراف، ج4، الشركة المتحدة للتوزيع، بيروت، 1997، ص30.
(13) مما قاله ابن الزبير في الحسين بن على عقب مقتلة في كربلاء منددا ببني أمية ويزيد :
((افبعد الحسين تطمئن إلى هؤلاء القوم ونصدق قولهم ونقبل لهم عهداً لا و لا نراهم لذلك أهلا، أما والله لقد قتلوه طويلاً بالليل قيامه كثير في النهار صيامه أحق بما هم فيه منهم وأولى به في الدين والفضل، أما والله ما كان يبدل بالقرآن الغناء ولا البكاء من خشية الله الحداد ولا بالصيام شرب الحرام ولا بالمجالس في حلق الذكر الركض في طلاب الصيد – يعرض بيزيد فسوف يلقون غياً)).
محمد بن جرير الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج3، دار صادر، بيروت، ط3، 2008 م، ص1060 – 1061.
(14) الطبري، المصدر السابق، ج3، ص1062.
(15) ابن الأثير، المصدر السابق، ج4، ص44.
(16) الطبري، المصدر السابق، ج3، ص1064.
(17) ابن كثير، المصدر السابق، ج8، ص225.
(18) ابن الأثير، المصدر السابق، ج4، ص55.
(19) الطبري، المصدر السابق، ج3، ص1065.
(20) ابن كثير، المصدر السابق، ج3، ص490.
(21) عماد الدين إسماعيل أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج1، دار المعارف، القاهرة، د. ت. ص75.
(22) احمد إبراهيم الشريف، المرجع السابق، ص442.
(23) البلاذرى، انساب الأشراف، ج 4، ص61.
(24) ابن الأثير، المصدر السابق، ج3، ص471.
(25) ابن كثير، المصدر السابق، ج8، ص242 – 243.

(26) احمد بن على المقريزي، النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبنى هاشم، مصر، 1937، ص25.
(27) ابن الأثير، المصدر السابق، ج4، ص12، 13.
(28) الطبري، المصدر السابق، ج3، ص1150، 1151.
(29) المصدر السابق، ج3، 1125.
(30) المصدر السابق، ج3، ص1150، 1151.
(31) ابن الأثير، المصدر السابق، ج4، ص64، 65.
(32) الطبري، المصدر السابق، ج3، ص1175 – 1179.
(33) احمد إبراهيم الشريف، المرجع السابق، ص450.
(34) الطبري، المصدر السابق، ج3، ص1190 – 1191، ابن الأثير، المصدر السابق، ج4، ص122 – 123.
(35) ابن الأثير، المصدر السابق، ج4، ص124.
(36) المسعودى، المصدر السابق، ج3، ص111، 112.
(37) حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ج1، ص334، وقد أورد ابن عبد ربه في عقده الفريد قصة تدل على حرص عبد الله بن الزبير على المال، كما أنها تدل على عدم دبلوماسيته في جمع الأنصار والمؤدين من حوله ومفادها ((لما قتل مصعب بن الزبير المختار بن أبي عبيد الثقفي، خرج حاجاً فقدم على أخيه عبد الله بن الزبير بمكة ومعه وجوه أهل العراق، فقال له : يا أمير المؤمنين جئتك بوجوه أهل العراق، لم ادع لهم بها نظيراً، لتعطيهم من هذا المال، قال جئتني بعبيد أهل العراق لأعطيهم مال الله، والله لا فعلت، فلما دخلوا عليه واخذوا مجالسهم، قال لهم: يا أهل الكوفة، وددت والله إن لي بكم من أهل الشام صرف الدينار والدرهم، بل لكل عشرة رجلاً، فقال له عبيد الله بن طيبان: أتدرى يا أمير المؤمنين ما مثلنا ومثلك فيما ذكرت؟ قال وما ذلك؟ قال: فإن مثلنا ومثلك ومثل أهل الشام كما قال اغشي بكر بن وائل: علقتها عرضاً وعلقت رجلاً غيري وعلق أخرى غيرها الرجل أحببناك نحن، وأحببت أنت أهل الشام، وأحب أهل الشام عبد الملك، ثم انصرف القوم من عنده خائبين فكاتبوا عبد الملك بن مروان، وغدروا بمصعب بن الزبير ((احمد بن محمد بن عبد ربه (العقد الفريد، ج1، تحقيق: مفيد محمد قميحه، دار الكتب العلمية، بيروت، ص341.

المصادر والمراجع : ـ

أولاً : المصادر

1 – أبو الفداء عماد الدين إسماعيل : المختصر في أخبار البشر، ج1، دار المعارف، القاهرة، د. ت.
2 – ابن أبي دينار أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم القيرواني: المؤنس في أخبار افريقية وتونس، دار المسيرة، بيروت، 1993م.
3 – ابن الأثير: على بن محمد بن عبد الكريم : الكامل في التاريخ، دار صادر، ط1، بيروت، 1995م.
.....: أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج3، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2002.

4 – البلاذري. احمد بن يحي بن جابر : فتوح البلدان، دار اقرأ، بيروت، 1992م
.....: أنساب الأشراف، ج4، الشركة المتحدة للتوزيع، بيروت، 1997 م.
5 – ابن طباطبا محمد بن على : الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، تحقيق : ممدوح حسن محمد، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د. ت.
6 – الطبري، محمد بن جرير : تاريخ الأمم والملوك، ج3، دار صادر، بيروت، ط3، 2008م.
7 – ابن عبد الحكم. أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله : فتوح مصر والمغرب، تحقيق: على محمد عمر، الثقافة الدينية، القاهرة، 1995م.
8 – ابن عبد ربه، احمد بن محمد : العقد الفريد، ج1، تحقيق : مفيد محمد قميحه، دار الكتب العلمية، بيروت.
9 – ابن كثير إسماعيل بن عمر : البداية والنهاية، ج8، مكتبة المعارف، بيروت، 1983 م.
10 – المسعودى، على بن الحسين، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج3، المكتبة التوفيقية، القاهرة، د. ت.
11 – المقريزي احمد بن على : النزاع والتخاصم فيما بين أمية وبنى هاشم، مصر، 1937م.

ثانياً : المراجع :

1 – احمد إبراهيم الشريف: دور الحجاز في الحياة السياسية العامة في القرنين الأول والثاني للهجرة، دار الفكر العربي، القاهرة، 1968م.
2 – حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ج1، دار الهيئة العربية، القاهرة، 2001.